الكَلامُ المُوَجَّهُ في القُرْآنِ الكَرِيمِ
(دِراسَةٌ في تَعَدُّدِ الدَّلالَةِ)

د. وائل عبد الأمير الحربي
كلية الآداب – جامعة بابل

فحوى البحث

يَدْرسُ هَذَا البَحْثُ فَنًّا لُغَويًّا وبَلاغِيًّا أَطْلَقَ عليه السَّابقونَ مِن عُلَمَاءِ التَّفسِيرِ والبَلاغَةِ: اسمَ الكَلام المَوَجَّهِ أَو التَّوجِيهِ، وَهُوَ فَنٌّ يُعْنَى الدَّارِسُونَ فِيهِ بِالبَحْثِ فِي تَعَدُّدِ الدَّلالاتِ والمَعَانِي في النَّصِّ الوَاحِدِ. وَقَد قَسَّمْتُ بحثي هذا عَلَى ثَلاثَةِ مَحَاوِرَ، عَالجْتُ في المحوَرِ الأَوَّلِ مُصطَلَحَ الكَلام المَوَجَّهِ، فَوَقَفتُ عَلَى أَهَمِّ مَن اسْتَعْمَلَه مِن القُدَمَاءِ، مُبيِّنًا مَا ارْتَسَمَ مِن مَفْهُوم لَهُ فِي أَذْهَانِهم فِي ضَوْءِ مَا ذَكَرُوه لَهُ مِن تَعريفَاتٍ، وَمَا أَوْرِدُوا لَهُ مِن شَوَاهِدَ وَأَمثِلَةٍ، كَمَا بَيَّنَ البَحْثُ أَنَّ فِي التُّرَاثِ العَرَبِيِّ مُصْطلَحَاتٍ أُخْرى اسْتَعْمَلَهَا القُدَمَاءُ بَدِيلًا عَن مُصْطَلَحَ الكَلام المَوَجَّهِ، فَعَرَضَهَا وَبَيَّنَ الفُرُوقَ بَيْنَهَا. فِي حين تَنَاوَلَ المحورُ الثَّاني أَهَمَّ النُّصُوصِ القُرآنِيَّةِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ فَنَّ الكَلام المَوَجَّهِ، مُعَوِّلِينَ فِي اسْتِخْرَاجِهَا وَتَحدِيدِ مَوَاضِعِهَا عَلَى أَقْوَالِ المفَسِّرينَ، وَمُفِيدِينَ –فِي الوَقْتِ نَفْسِه– مِن آرَائِهِم وَاجْتِهَادَاتِهم في الكَشْفِ عن الدَّلالاتِ وَالمَعَانِي المحْتَمَلَةِ للنُّصُوصِ، معَ البَحْثِ فِي الأَسْبَابِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى تَعَدُّدِ الدَّلالاتِ وَاتِّسَاعِ المَعَانِي فِي النَّصِّ الوَاحِدِ. فِي حين كَانَ المحورُ الثَّالِثُ للخَاتِمَةِ الَّتِي قَدَّمْنَا فِيهَا مُلَخَّصًا لِمَضْمُونِ البَحْثِ وَمَفْهُومِهِ، كَمَا أَجْمَلْنَا فِيهَا أَهَمَّ مَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ البَحْثُ مِن نَتَائِجَ.

بسم الله الرحمن الرحيم

الكَلامُ المَوجَّهُ -أَو كَمَا يُسمِّيه عُلَماءُ البَلاغَة: التَّوجيه -هو فنٌّ بلاغيٌّ يُراد به أَنَّ الكلامَ يحتملُ وَجهين مُختلفين، أَي أَنَّه يحتملُ دلالتين مُختلفتين؛ قال السَّكَّاكيُّ (ت٦٢٦هـ) ((التَّوجيهُ، وهو إيرادُ الكلامِ محتملًا لوجهين مختلفين كقولِ مَن قال للأعور: ليتَ عينيه سَواء، وللمتشابهات مِن القُرآنِ مَدخلٌ في هذا النَّوعِ باعتبار. ومنه سَوقُ المعلومِ مَساقَ غَيرِه ولا أُحِبُّ تَسميته بالتَّجاهل))[1].

ولعلَّ في قول السَّكاكيِّ: إنَّ التَّوجيه هو ما يحتملُ وَجهين مختلفين، إشارةً إلى أَنَّ الاختلافَ غيرُ محصورٍ في المعنى اللُّغويِّ وإنَّما يَشملُ المعنى السِّياقيِّ على اختلاف مُكوِّناته مِن مُتكلِّم، ومُخاطَب أو مُتلقٍّ، ورسالةٍ بما فيها من دلالاتٍ أَساسيَّة أَو هامشيَّة. وهو في كَلامِه هذا الْتفتَ إلى أَنَّ لهذا الفنِّ تجلِّيَاتٍ في المُتَشَابِهَات من آيات القُرآنِ الكَريمِ، ومِن ثَمَّ كان لِطبيعةِ هذا الفنِّ مَدخلٌ في تلكَ المُتَشَابِهَات باعْتِبَارِ أَنَّه يَبحَثُ فيها عن تَعَدُّدِ الاحْتِمَالات الدَّلاليَّة، وهو ما تُتيحُه نصوصُ المَتَشابهِ القُرآنيِّ. وقد سمَّاه بـ: سَوق المعلوم مَساق غير المعلوم في القُرآنِ الكريمِ، مِن بابِ التَّأَدُّب.

وَقَدْ أَطْلَقَ ابنُ أبي الإصبع العدوانيّ (ت٦٥٤هـ) على فَنِّ التَّوجيه اسم التَّورية، قال: ((باب التَّورية ويُسمَّى التَّوجيه، وهي أَنْ تكونَ الكلمةُ تحتملُ مَعنيين، فَيَستعمل المتكلمُ أَحدَ احْتِمَالَيهَا ويُهمِل الآخَر، ومُرادُه ما أَهملَه لا ما استعملَه، كقولِ عليٍّ عليه السلام في الأَشعث بن قَيس: «وهذا كان أَبُوه ينسجُ الشِّمالَ باليمين»[2]، لأَنَّ قَيساً كان يحوك الشِّمالَ الَّتي واحدتُها شَمْلَة))[3]. فالتَّوجيهُ عند ابن أبي الإصبع هو، إذًا، ما يَحتملُ مَعنيين، مُرادُ المتكلِّم منها البعيدُ لا القريب.

(١) مفتاح العلوم: ٤٢٨، وينظر: الطراز لأسرار البلاغة: ٣/ ٧٤٧٤، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح: ٤/ ٦٢٨.

(٢) ينظر القول في: غريب الحديث لابن الجوزي: ١/ ٥٦١، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/ ٥٠٢، ولسان العرب: ١١/ ٣٦٨ (شمل)، وتاج العروس: ٢٩/ ٢٨٩ (شمل).

(٣) تحرير التحبير: ٢٦٨.

ويُورِدُ ابنُ أبي الإصبع العدوانيُّ مُصطلحًا آخرَ قريبًا من مُصطلح التَّوجيه، وهو (الإبهام)، غيرَ أنَّه يكونُ في ما يحتملُ مَعنيين مُتضادَّين، قال: ((باب الإبهام: وهو أن يقولَ المتكلِّمُ كلامًا يحتملُ مَعنيين مُتضادَّين، لا يَتميزُ أَحدُهما عن الآخَر، ولا يَأتي في كلامه بما يحصل به التَّمييز فيما بعد ذلك، بل يقصد إبهامَ الأمرِ فيهما قَصْدًا.. ، والإبهامُ لا يَكونُ إلَّا في الجُمل المركَّبة المفيدة، ويختصُّ بالفُنون كالمديح، والهجاء، وغيرِهما))[٤]. ويُلْحَظ، على كلامه، هنا، أنَّه جَعَل الإبهامَ مُختصًّا بالفنون كالمديح والهجاء، وهذا لا يَنطبقُ على التَّوجيه، فهو لا يختصُّ بفَنٍّ مُعين، كما أنَّه لا يختصُّ بالمعاني المتضادَّة. ويظهر -ممَّا سَبَق- أنَّ الفَرْقَ بينَ الإبهام والتَّورية هو أنَّ الإبهامَ يَحتملُ مَعنيين مُتضادَّين من دون إرادة أَحدِهما، في حين أنَّ التَّوريةَ تَحتملُ مَعنيين يُرادُ منهما المعنى البعيد.

(٤) تحرير التحبير: ٥٩، وينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب: ٧/ ١٧٤، وخزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ١٧٨، وأنوار الربيع في أنواع البديع: ٨١، بترقيم الشاملة آليا.

ويَذكرُ يحيى بنُ حمزةَ العَلَويُّ (ت٧٤٥هـ) أَنَّ للتَّوجيه عند البلاغيينَ استعمالَيْن، أَحدهما هو ما يُسَمَّى بالمدح بما يُشبه الذَّمَّ، والآخرُ: هو أَن يُمدحَ الممدوح بشيءٍ يقتضي هذا الشيءُ مَدْحَه بشيءٍ آخرَ، وقد وضَّح كُلًّا منهما بشَوَاهِدَ كاشِفة، قال: ((ثم إنَّه يَرِدُ في البلاغة على استعمالين،... ، الاستعمال الأول: أَنْ يُؤكَّدَ المدْحُ بما يكونُ مُشبهًا للذَّمِّ بأَنْ تَنْفيَ عن الممدوح وَصْفًا مُعينًا ثُم تُعْقِبُه بالاستثناء فتُوْهِم أَنَّك استثنيتَ ما يُذَمُّ به فتَأْتي بما من شأنِه أَنْ يُذَمَّ به وفيه المبالغة في مدح الممدوح ومثاله قول النابغة[٥]:

وَلا عَيْبَ فِيهم غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهم
هِنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكَتَائبِ

الاستعمال الثاني من التَّوجيه، وهو أَن يُمدَحَ شيء يَقتضي المدْحَ بشيءٍ آخرَ، وهذا كقول المتنبي[٦]:

نَهَبْتَ من الأَعْمَارِ مَا لَو حَوَيْتَه
لَهُنِّئْتِ الدُّنيا بِأَنَّكَ خَالِدُ

(٥) البيت للنابغة الذبياني، في ديوانه: ٤٤.
(٦) البيت للمتنبي في ديوانه.

فأَوَّلُ البيتِ دَالٌّ على المدح بالشَّجاعة، وآخرُه دالٌّ على عُلُوِّ الدَّرجة، ومِن هذا قولُ بعضهم مِن النَّثر: هُم بِحارُ العلى إلا أَنَّهم جِبال الحلم،...))[٧]. ويُفهم من كلام العَلَويِّ وشَواهِده وأَمثلته أَنَّه يحصر فنَّ التَّوجيه أو الكلام الموجَّه بالمدح أو الهجاء، وهذا شيءٌ رفضه الدارسون اللّاحقونَ مِن أَهلِ البلاغة.

وَقَدْ بَيَّنَ ابنُ حجَّةَ الحمويِّ (ت٧٣٨هـ) أَنَّ التَّوجيهَ مَا يَحتَمِلُ مَعْنيين احْتِمَالًا مُطلقًا مِن غَيْرِ تَقييدٍ بمدحٍ أو بغَيره، قال: ((التَّوجيه،...، في الاصطلاحِ أَن يحتملَ الكلامُ وَجهين مِن المعنى احتمالًا مُطلقًا، من غَيرِ تقييدٍ بمدح أَو غَيره))[٨]. ونبَّه على أَنَّ التَّوجيه هو ما يُسمَّى عند القدماء بالإبهام، ذاهبًا إلى أَنَّ تَسميتَه بالإبهام أَليقُ مِن تَسميتِه بالتَّوجيه، ولافتًا إلى أَنَّ السَّكَّاكيَّ هو من سمَّاه بالتَّوجيه ومِن ثَمَّ تابعه اللَّاحقون، قال: ((والتَّوجيه هو إبهامُ المتقدمينَ، لأَنَّ الاصطلاح فيهما واحدٌ، غيرَ أَنَّ الشَّواهدَ الَّتي استشهدوا بها على التَّوجيه، الإبهامُ أَحقُّ بها لِطُلوع أَهلتها زاهِرة في أُفقه، ولمطابقةِ التَّسميةِ،...، فتسميةُ النَّوع هنا بالإبهام أَليقُ مِن تَسميتِه بالتَّوجيه، ومُطابقةُ التَّسمية فيه لا تَخفى على أَهلِ الذَّوقِ الصَّحيح،...، والسَّكَّاكيُّ ومَن تبعه سمَّوا هذا النَّوع: التَّوجيه، ونَسَجَ النَّاسُ على مِنوالهم))[٩].

وَيُسَاوِي ابنُ حجةَ الحمويُّ، في مَوضعٍ آخَرَ، بينَ مُصطَلَحِ التَّورية والإيهامِ (بالياء بنقطتين) والتَّوجيهِ والتَّخيير، مُفَضِّلًا مُصطلحَ التَّورية عليها، قال ((التَّوريةُ، يُقال لها: الإيهام والتَّوجيه والتَّخيير. والتَّورية أَولى في التَّسميةِ لِقُربها مِن مُطابقة المسمّى، لأَنَّها مَصدر وريت الخبر تَورية إذا سترته وأَظهرت غَيْرَه، كأَنَّ المتكلِّمَ يجعلُه وراءَه بحيثُ لا يَظهر. وهي في الاصطلاح، أَنْ يَذكرَ المتكلِّمُ لفظًا مُفردًا له مَعنيانِ حَقيقيّانِ، أَو حقيقة

(٧) الطراز لأسرار البلاغة: ٣/ ٧٤٧٤.

(٨) خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٣٠٣.

(٩) خزانة الأدب وغاية الأرب: ١/ ٣٠٣.

ومجازًا، أَحدهما قَريبٌ ودلالةُ اللّفظِ عليه ظاهرةٌ والآخَرُ بعيدٌ ودلالةُ اللّفظِ عليه خَفِيَّةٌ، فيُريدُ المتكلِّمُ المعنى البعيدَ ويُوري عنه بالمعنى القَريبِ، فيَتَوَهّم السّامعُ أوَّلَ وَهلة، أَنَّه يُريدُ القَريبَ وليس كذلك، ولأَجلِ هذا سُمِّيَ هذا النوع إيهامًا))[10]. والمتأَمِّلُ في هذا الكلامِ يَجد أَنَّ التَّوريةَ في ضوءِ المفهوم الَّذي قدَّمه الحمويُّ نفسُه يختلفُ عن التَّوجيهِ، لأَنَّ التَّورية قد تكونُ في كلمةٍ واحدةٍ تحتملُ مَعنيينِ في حين أَنَّ التَّوجيهَ قد يكونُ في كلمةٍ وقد يكونُ ناتجًا مِن دلالةِ التَّركيب كُلِّه لا مِن كلمةٍ واحدةٍ وهو الأغلبُ، والأَهمُّ مِن هذا أَنَّ التَّورية فيها مَعنيانِ أَحدهما قَريبٌ غيرُ مُرادٍ والآخَرُ بَعيدٌ وهو المرادُ عندَ المتكلِّم، في حين أَنَّ التَّوجيهَ كلامٌ يَحتملُ وَجهينِ مِن غيرِ مُرجِّحٍ لأَحدِهما على الآخَرِ.

وَقَدْ أَشَارَ ابنُ مَعصوم (ت ١١١٩هـ) إِلى التَّرادُفِ الاصطلاحيِّ بيْنَ مُصطلحَي الإِيهام والتَّوجيه، قال: ((الإِيهامُ -بالباء الموحَّدة، وسمَّاه بعضُهم: التَّوجيه، ومُحتمل الضِّدَّين))[11].

وفي ما يأتي دراسةٌ لأَهمِّ النُّصوصِ القُرآنيَّة الَّتي أَشارَ المفسِّرونَ والبلاغيُّونَ إلى أَنَّ فيها كلامًا مُوجَّهًا، مع محاولةٍ للوقوفِ على أَسبابِ تَعدُّدِ المعنى وَمُسوِّغَاتِهِ مِن مُتكلِّمٍ أَوْ مُخاطَبٍ أَو نَصٍّ أَوْ غَيْرِ ذلك. وَأَوَّلُ هذه النُّصوصِ قَولُه تَعالى:

١- ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[سورة النساء: ٦٤].

اكْتَفَى بَعْضُ المفسِّرينَ في تَفْسِيرِ قولِه تَعَالى: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾، بِذِكْرِ مَعنًى وَاحِدٍ غايتُه الذَّم، وفحوى هذا المعنى: أنَّ هذا التَّعْبِيرَ دُعاءٌ

(١٠) خزانة الأدب وغاية الأرب: ٢/ ٣٩.

(١١) أنوار الربيع في أنواع البديع ص: ٨١، بترقيم المكتبة الشاملة آليا.

على الرَّسولِ محمدٍﷺ بأَنْ يُصابَ بالصَّمَمِ فلا يَسْمَعُ، ودعاءٌ عليه بأَنَّه إِذَا خَاطَبَ النَّاسَ لا يَسْمَعون منه ولا يُجيبونَه؛ قالَ الأَخفشُ: ((وقولُه ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أي: لا سَمِعْتُ، وأما ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أي: لا يُسْمَعُ مِنْكَ فأَنْتَ غَيْر مُسْمِعٍ))[١٢]. فالأَخفشُ هنا يُبينِّ أَنَّ المعنى هو: لا سَمِعْتَ، ولكنَّه يُشِيرُ إلى أَنَّ هذا التَّركيبَ قد يَحتملُ مَعنًى آخرَ مَرجعُهُ تَغيُّرُ الصِّيغةِ الصَّرفيَّةِ لِكَلِمَةِ (مسمع) بيْنَ دلالتَي اسمِ المفعول واسمِ الفاعل. وهذا المعنى الآخرُ الناتجُ من تغيُّرِ الصيغةِ الصرفيةِ هو دعاء على الرسولﷺ بأن يكونَ كلامُه غيرَ مسموعٍ وخِطابُه غيرَ مُجَاب. وقد بيَّن الزجاج هذا المعنى مِن غيرِ إشارةٍ إلى أثر تَغيُّرِ الصِّيغة الصَّرفيَّةِ في إنتاجِ هاتين الدلالتين؛ قال: ((وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾. كانت اليهود -لُعِنَتْ- تقول للنبيﷺ: اسمَعْ، وتقول في أنفسها: لا أُسْمِعتَ. وقيل: غَيرَ مسمَعٍ، غير مجاب إلى ما تدعو إليه))[١٣]. وقد عَرَضَ الواحديُّ صورةً مسرحيَّةً لغويَّةً تُفسِّرُ المعنى السَّلبيَّ الَّذي يَتضمنه هذا التعبيرُ، مُرْجِعًا هذا المعنى إلى التلاعب الخطابي بين المُعلَنِ من الكلام والمخْفِي منه، قال: ((كانوا يقولون للنبيﷺ: اسمع، ويقولون في أنفسهم: لا سمعت))[١٤]. وهذا ما أكده قول البغوي في تفسيره: ((وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ أَيْ: اسْمَعْ مِنَّا وَلَا نَسْمَعُ مِنْكَ، غَيْرَ مُسْمَعٍ أَيْ: غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْكَ. وَقِيلَ: كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّﷺ: اسْمَعْ ثُمَّ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَا سَمِعْتَ))[١٥].

في حين ذكر مُفسِّرونَ آخَرونَ وَجْهَيْنِ في تفسيرها، أَحدُهُما: أَنَّ هذا التعبيرَ دُعاءٌ على مَن قِيلتْ فيه بأَنْ يُصابَ بالصَّمم، والآخَرُ: أَنَّه دُعاءٌ له؛ قال الرَّاغب الأَصفهانيُّ: ((وقوله ﴿ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ يُقال على وَجهَيْن:

(١٢) معاني القرآن للأخفش: ١/ ٢٥٩، وتأويل مشكل القرآن: ٢١٨.

(١٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٥٩.

(١٤) التفسير الوسيط للواحدي: ٢/ ٦١.

(١٥) تفسير البغوي: ١/ ٦٤١.

أَحدُهُما: دُعاءٌ على الإنسانِ بالصَّمم. والثَّاني: دُعاءٌ له))[١٦]. وقد شَرح الزَّمخشريُّ هذين الوَجهَيْن كاشِفًا عن أَنَّ هذا التَّعبيرَ القرآنيَّ يحتمل الذَّمَّ والمدحَ؛ قال: ((هو قولٌ ذو وجهَيْنِ، يحتمل الذَّمَّ أَي اسمع مِنَّا مَدعوًّا عليكَ -بِلا سمعت-لأَنَّه لو أُجيبتْ دَعوتُهم عليه لم يَسمع، فكانَ أَصمَّ غيرَ مسمع،... ، أَو اسمع غيرَ مُجابٍ إِلى ما تَدعو إليه؛ ومعناه غيرَ مسمعٍ جَواباً يُوافِقُكَ، فكأَنَّكَ لم تَسمع شيئًا. أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه، فسمعُك عنه نابٍ،... ، ويحتمل المدْحَ، أَي اسمع غيرَ مسمع مَكروهاً، مِن قَولِك: أَسْمَعَ فُلانٌ فُلانًا إِذا سَبَّه))[١٧]. وبيّن ابنُ عطيةَ أَنَّ هذا التَّعبيرَ تَعبيرٌ استعملته اليهودُ لأَنَّها تُريد أَن تُظهِرَ الدُّعاءَ له في حين أَنَّها تُخْفِي في النفوسِ الدُّعاءَ عليه والذَّمَّ له؛ قال: ((وغَيْرَ مُسْمَعٍ يتخرَّجُ فيه معنيان: أَحدُهُما غيرُ مأمورٍ وغير صاغِر، كأَنَّه قال: غير أن تسمع مأمورا بذلك، والآخرُ على جهة الدُّعاءِ، أي لا سمعت، كما تقول: امضِ غير مصيب، وغير ذلك، فكانت اليهود إذا خاطبت النبيَّ بغير مسمع، أَرادتْ في الباطنِ الدُّعاءَ عليه، وأَرتْ ظاهِرًا أَنَّها تُريدُ تعظيمه))[١٨]. ويبدو أَنَّ الفَرْقَ بين ما ذكره الزجاجُ والبغويُّ من جهةٍ وما ذكره ابنُ عطيةَ من جهةٍ أُخرى هو أَنَّ المتكلِّمَ أَو المرسِلَ، على الرأي الأول، يُجَزِّئُ الرِّسالةَ، فيُظْهِر مِنها شيئًا يُوافِقُ العُرفَ العامَّ وتوجُّهاتِ المتلقِّي بصوتٍ مسموعٍ للجميع، ويقول الجزْءَ الآخَر مِن الرسالةِ لِنَفْسِهِ معَ نَفْسِه وإِرضاءً لهوى نفسِه، أَيضًا بصوتٍ خافتٍ لا يَتمكَّن مِن سماعِه إِلَّا هو وأَقْرَانُه اليهودُ. في حين يبدو أَنَّ ابنَ عطيةَ يَفهمُ مِن هذا التَّعبيرِ أَنَّ طريقةَ

(١٦) تفسير الراغب الأصفهاني: ٣/ ١٢٦١، وزاد المسير: ١/ ٤١٦.

(١٧) الكشاف: ١/ ٥١٨، وينظر: التبيان في إعراب القرآن: ١/ ٣٦٣، وتفسير القرطبي ٥/ ٢٤٣، و أنوار التنزيل: ٢/ ٧٧، و مدارك التنزيل: ١/ ٣٦٢، و محاسن التأويل ٣/ ١٤١.

(١٨) المحرر الوجيز: ٢/ ٦٢، وينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٢/ ٢٤٤-٢٤٥.

النُّطقِ كانتْ واحدةً مِن حيث وُضوحُ الصَّوتِ ودرجةُ ارتفاعِه، فليسَ ثمةَ كلامٌ قِيلَ بصوتٍ واضحٍ وآخرَ قِيلَ بصوتٍ مُنخفضٍ غيرِ مَسموعٍ؛ فمَكْمَنُ التَّلاعبِ اللُّغويِّ والدَّلاليِّ إنَّما يَرجعُ إلى أنَّ هذه الرِّسالةَ اللغويَّةَ تحتملُ دلالةً ظاهِرةً يُراد مِن المتلقِّي فهمُها أخذًا بالظَّاهِرِ اللُّغويِّ، وتحتمل دلالةً باطِنةً هي الَّتي يُريدُها المرسلُ لِيُرضِيَ بها نَفْسَه، وهو مُدْرِكٌ أنَّها ليستِ الدَّلالةَ المطابقةَ لما قَرَّ في ذِهْنِ المتلقِّي.

وجَعَلَ الرَّازي هذا الاستعمالَ من ضَلالاتِ اليهودِ، لأنَّهم استعملوا اللُّغةَ على نَحْوٍ مقصودٍ لِيُؤدِّيَ هذا الاستعمالُ اللغويُّ المقصودُ دلالةَ المدحِ ظاهرًا ودلالةَ الذمِّ باطنًا مِن وُجوهٍ، وهو في هذا يَتوسَّعُ في إيضاحِ الدَّلالاتِ الَّتي ذكرها الزَّمخشريُّ، قال: ((مِنْ ضَلَالَتِهِمْ قَوْلُهُ: وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ ذُو وَجْهَيْنِ يَحْتَمِلُ الْمَدْحَ وَالتَّعْظِيمَ، وَيَحْتَمِلُ الْإِهَانَةَ وَالشَّتْمَ. أَمَّا أَنَّهُ يَحْتَمِلُ الْمَدْحَ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ مَكْرُوهًا، وَأَمَّا أَنَّهُ مُحْتَمِلٌ لِلشَّتْمِ وَالذَّمِّ فَذَاكَ مِنْ وُجُوهٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اسْمَعْ، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: لَا سَمِعْتَ، فَقَوْلُهُ: غَيْرَ مُسْمَعٍ مَعْنَاهُ: غَيْرَ سَامِعٍ، فَإِنَّ السَّامِعَ مُسْمَعٌ، وَالْمُسْمَعَ سَامِعٌ. الثَّانِي: غَيْرَ مُسْمَعٍ، أَيْ غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْكَ، وَلَا تُجَابُ إِلَى مَا تَدْعُو إِلَيْهِ، وَمَعْنَاهُ غَيْرَ مُسْمَعٍ جَوَابًا يُوَافِقُكَ، فَكَأَنَّكَ مَا أَسْمَعْتَ شَيْئًا. الثَّالِثُ: اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ كَلَامًا تَرْضَاهُ، وَمَتَى كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْمَعُهُ لِنُبُوِّ سَمْعِهِ عَنْهُ، فَثَبَتَ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مُحْتَمِلَةٌ لِلذَّمِّ وَالْمَدْحِ، فَكَانُوا يَذْكُرُونَهَا لِغَرَضِ الشَّتْمِ))[19].

وأَكَّدَ أبو حَيَّانَ الأندلسيُّ أنَّ مُرادَ اليهودِ مِن هذا الاستعمالِ هو الوَجْهُ المكروه بدليلِ ما جاء قبله، وهو قولُه تعالى: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، قال: ((وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ هَذَا الْكَلَامُ مُوَجَّه، وَيَحْتَمِلُ وُجُوهًا. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ الْوَجْهَ الْمَكْرُوهَ لِسِيَاقِ مَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: اسْمَعْ

(١٩) مفاتيح الغيب: ١٠/ ٩٣ - ٩٤.

لَا سَمِعْتَ))[٢٠]. وقد بيَّنَ الطَّاهِرُ بنُ عاشور (ت ١٣٩٣هـ =١٩٧٤م) أَنَّ هذا التَّعبيرَ كلمةٌ كانت العَرَبُ تستعملُها في الدُّعاءِ بالخيرِ، ولكنَّ اليهودَ استعملتْها على نَحْوٍ آخَرَ؛ إذ أَرادت مِن هذا التَّعبيرِ المعنى المكروهَ، إرضاءً لأَنفسِهم ونواياهم السَّيئةِ، وذلك بأَن يُظهِروا شيئًا ويُضمِروا في أَنفسِهم خِلافَه، قال: ((وَمَعْنَى اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ عِنْدَ مُرَاجَعَتِهِ فِي أَمْرِ الْإِسْلَامِ: اسْمَعْ مِنَّا، وَيُعَقِّبُونَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ قَصَدُوا الظَّاهِرَ الْمُتَبَادِرَ مِنْ قَوْلِهِمْ: غَيْرَ مُسْمَعٍ، أَيْ غَيْرَ مَأْمُورٍ بِأَنْ تَسْمَعَ، فِي مَعْنَى قَوْلِ الْعَرَبِ: (افْعَلْ غَيْرَ مَأْمُورٍ). وَقِيلَ مَعْنَاهُ: غَيْرَ مُسْمَعٍ مَكْرُوهًا، فَلَعَلَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَقُولُونَ: أَسْمَعَهُ بِمَعْنَى سَبَّهُ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَانَتْ مَعْرُوفَةَ الْإِطْلَاقِ بَيْنَ الْعَرَبِ فِي مَعْنَى الْكَرَامَةِ وَالتَّلَطُّفِ إِطْلَاقًا مُتَعَارَفًا، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا قَالُوهَا لِلرَّسُولِ أَرَادُوا بِهَا مَعْنًى آخَرَ انْتَحَلُوهُ لَهَا مِنْ شَيْءٍ يَسْمَحُ بِهِ تَرْكِيبُهَا الْوَضْعِيُّ، أَيْ أَنْ لَا يَسْمَعَ صَوْتًا من متكلّم. لِأَن يَصِيرَ أَصَمَّ، أَوْ أَنْ لَا يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُ. وَالَّذِي دَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ أَرَادُوا ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدُ: وَلَوْ أَنَّهُمْ قالُوا -إِلَى قَوْلِهِ: -اسْمَعْ وَانْظُرْنا فَأَزَالَ لَهُمْ كَلِمَةَ (غَيْرَ مُسْمَعٍ). وَقَصْدُهُمْ مِنْ إِيرَادِ كَلَامٍ ذِي وَجْهَيْنِ أَنْ يُرْضُوا الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَيُرْضُوا أَنْفُسَهُمْ بِسُوءِ نِيَّتِهِمْ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ وَيُرْضُوا قَوْمَهُمْ، فَلَا يَجِدُوا عَلَيْهِمْ حُجَّةً))[٢١].

وقد صَرَّحَ بعضُ المحدثين بأَنَّ الآيةَ الكريمةَ تَتضمَّنُ فَنَّ الإِبهامِ أَو فَنَّ الكَلامِ الموجَّهِ، وَمِنهم الأُستاذُ محمودُ بن عبد الرحيم صافي (ت ١٣٧٦هـ=١٩٥٧م)؛ إذ قال: ((الإبهام أو الكلام الموجَّه: في قوله تعالى: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾. وهو كلامٌ ذو وَجْهَين -محتملٌ للشَّر والخير -ويُسمَّى في البديع بالتَّوجيهِ. واحتماله للشَّرِّ بأَن يُحمَلَ على مَعنى اسمع مَدعوًّا عليك بألا سمعت، أو

(٢٠) البحر المحيط: ٣/ ٦٦٢.

(٢١) التحرير والتنوير: ٥/ ٧٦.

اسمع غير مجاب إلى ما تدعو إليه. واحتمالُه للخيرِ بأن يُحمَلَ على معنى (اسمع) مِنَّا (غير مسمع) مكروها، مِن قولهم: أسْمَعَه فلان إذا سبه. وقد كانوا لعنهم اللهُ تعالى يُخاطِبونَ بذلك رسولَ الله ﷺ استهزاءً مُظهرين المعنى الأخيرَ وهم يُضمِرونَ سواه))[٢٢].

وممَّن صَرَّحَ بوجودِ هذا الفنِّ في هذه الآيةِ أيضًا الأُستاذُ محيي الدِّين درويش (ت ١٤٠٣هـ=١٩٨٣)؛ إذ قال: ((اشتملت هذه الآيةُ على فَنٍّ فريدٍ نُسمِّيه: الإبهامَ أو الكلامَ الموجَّهَ أو المحتملَ للضِّدَّين، وهو الإتيان بكلامٍ يحتملُ معنيين مُتضادَّين بحيث لا يتميز أحدُهما مِن الآخَرِ، وهو قولُه: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ فهو ذُو وَجْهَين: وَجْهٌ يَحتملُ الذَّمَّ: أي استمع مِنَّا مَدعوًّا عَلَيك بِلا سمعت، أَي: أَصابَكَ اللهُ بِالصَّمم: الموت. ولعلَّه هو المراد هنا لما انطوا عليه من خِسَّة. ووَجْهٌ يَحتملُ المدْحَ: أي اسمع غير مسمع مكروها))[٢٣].

٢- ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾[سورة النساء: ١٢٧].

يَحتملُ قولُه تَعَالى: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ وَجْهَين؛ وذلك لأَنَّ الفعلَ (رغبَ) يَتعدَّى بحرفَي الجرِّ: (في، وعن)، فيتعدَّى بالحرفِ الأَوَّلِ (في) للتَّعبيرِ عن إرادةِ الشَّيءِ والرَّغبةِ فيه، وَيتعدَّى بالحرف الثَّاني: (عن) للتَّعبيرِ عن تركِ الشَّيءِ وبُغْضِه، وقد التفَتَ المفسِّرونَ إلى هذين الوَجْهَيْن، وأَنَّهما يَنتجان مِن أَثرِ اختلافِ تقديرِ حرفِ الجرِّ على كلِّ وَجْهٍ، وهو بطبيعةِ الحالِ نابِعٌ مِن خَصائصِ التَّركيب؛ قال الثَّعلبيُّ (ت ٤٢٧هـ): ((﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُن ﴾، أَي: وترغبونَ عن

(٢٢) الجدول في إعراب القرآن: ٥/ ٥٣-٥٤.

(٢٣) إعراب القرآن وبيانه: ٢/ ٢٢٧.